التجسّد والكمال البشريّ

هل يمكن للإنسان أن يصل إلى الكمال؟ وكيف يتمّ ذلك؟ قد يبدو للعديدين أن مسألة بناء الحضارة البشريّة على وجهها الأكمل هي عمل علم الاجتماع أو مسألة بيد العلوم التطبيقية، ويبقى الدين مسألة اللون الفكري للنشاطات الإنسانيّة، الذي علينا أن نضعه في حيّز وقت الفراغ الحرّ لكلّ فرد في المجتمع.

المسيحيّة ليست ديناً من هذا المنظور. المسيحيّة هي الدرب الحقيقيّ الذي يسعى الإنسان به لتحقيق حضارة إنسانيّة في كمالها. وما نسمّيه ملكوت الله المنتظر والذي نصلي يومياً وفي كلّ لحظة من أجل حضوره هو العالم الذي نتصوره الأمثل والأكمل من أجل حياة الإنسان. وبالأحرى إنّه العالم الذي يحيا فيه الإنسان ملء حياته ويحقّق فيه أكمل وجه للحضارة البشريّة.

ولقد تاهَ الفكرُ البشريّ عبر التاريخ في طريقتَين من التفكير في محاولته لبناء أكمل حضارة إنسانيّة. الطريقة الأولى رأت الكمال مستحيلاً عند الناس وجعلته حصة الله وحده. والطريقة الثانية رأت الله فكرة سماويّة لا علاقة له ببناء حضارة هذه الأرض. فهناك الله هو الكامل والإنسان يتخبط في حلقة يائسة، وهنا الإنسان يبني كماله بيده فقط، والله هو مجرّد فكرة بائسة. والطريقتان ملحدتان في عمقهما. وذلك لأنّهما تفصلان الله عن كمال الإنسان والإنسان عن الله في بناء حياته ومستقبله وحضارته الإنسانيّة.

الطريقة الفكرية الأولى هي ذات خلفيّة أفلاطونيّة. ومن خلالها يؤمن الناس أن الكمال هو مثال سامٍ جداً، لكنّه ليس للإنسان وإنّما الله (إن كان موجوداً) وحده يستطيع أن يملكه.

فالفضائل المثالية من الصدق والتضحية والمحبّة والعدل في صورها المثاليّة هي غير ممكنة للناس فعلاً. وإنّما هذه كلّها توجد نعم، ولكن عند مَن نسمّيه الله وليس على هذه الأرض. وفضيلة الإنسان تقوم على تقليد واشتهاء هذه التي هي في ذلك العالم البعيد. وبالتالي "الكمال البشريّ" ليس ممكناً في الواقع. فالكمال ليس نهاية للإنسان بل هو مثل له. وعلى الإنسان أن ييأس أو يقبل ويؤمن أنّ قدره محصور في اشتهاء صور غير ممكنة لديه في هذا العالم في كمالها. وهذا بالتمام هو عكس المنطق المسيحيّ وغايته. فالمسيحيّة ليست دنيا بمعنى وضع المثل بل هي للسعي البشريّ من أجل تحقيق

الكمال الإنساني بصورته الجماعية التي نسمّيها "ملكوت الله" وبصورته الفرديّة التي نسمّيها "القداسة". غاية المسيحيّة تتلخّص في كلمتين "القدّيس" و"ملكوت الله"، الآن وهنا!

والطريقة الفكريّة الثانية ذات طابع إلحاديّ وجوديّ، حيث يؤمن أصحابها أنّ الله (إذا كان موجوداً) هو مسألة فكريّة دينيّة، والله ليس لتحقيق "الحياة" الحاضرة في وجهها الإنسانيّ الكامل والمشتهى. فمسألة الحضارة الإنسانيّة هي مسؤوليّة الإنسان وليس لله دور فيها. فالله هنا - في حال وجوده- هو لون أخلاقيّ ومسألة للعبادة الفرديّة أو للعادات الاجتماعيّة، وقد يكون له دور لا يتعدّى بعض التأثير الخلقيّ والاجتماعيّ على حياة الناس. يجب على الإنسان أن يبني حضارته بيده، وأن يحقّق كماله وحضارته وتقدّمه بجهوده وعلومه. "فالإنسان" سيصير إلهاً "بالإنسان".

فبالطريقة الأولى وجه الإلحاد يظهر باعتبار "الكمال" –(التطور- الحضارة- القداسة) مسألة تخصّ الله بالفعل وليس الإنسان. وبالطريقة الثانية يظهر الإلحاد باعتبار الكمال-التأله ممكن ولكن بالفعل دون الله. فهناك لا صلة فعلية بين الإنسان اليائس والله المطوب والمغبوط في قداسته في سماه، وهنا سيحقّق الإنسان غبطته دون الله. فهناك لا صلة عميقة بين الله والإنسان، وهنا لا حاجة فعلية للإنسان إلى الله.

وما علاقة كلّ ما سبق بموضوع الميلاد؟

الميلاد هو الطريقة الحقيقة بين متاهات الطريقتين السابقتين. الميلاد هو "كمال التاريخ البشريّ". لقد ظهر الله في الميلاد، لقد ظهر في الميلاد أن الكمال البشريّ ليس لله وحده. الكمال الإنسانيّ يأتي من اتحاد الله بالإنسان وليس من فصلهما. الكمال والحضارة والتقدّم البشريّ كلّها أمور ووسائل لن تتحقّق للإنسان بمعزل عن الله! لكن الكمال يتحقّق فعلاً بمقدار ما يتّحد الإنسان بالله.

كمال التاريخ لدينا وقمته ليسا في نهاية التاريخ أو غاية تحت المراهنة أو المشتهى أو الأحلام. قمة التاريخ واقع تمّ. "فأكملُ إنسان" ليس فرضّية أو رغبة نؤمن أنّها ستحصل في نهاية التاريخ البشريّ. "فالإنسان الكامل" هو المسيح. نحن لدينا الصورة التي تحقّقت بيسوع المسيح. وغايتنا عبر التاريخ هي تحقيقها في كلّ إنسان.

تؤمن المسيحيّة أن الكمال ليس مسألة غير ممكنة ولا نهاية تحت مراهنة. وإلاّ لما كان هناك من داعٍ للإيمان. تؤمن المسيحيّة أن الكمال تحقّق وممكن بتجسّد المسيح وهذا ممكن لكلّ إنسان. الكمال هو لـ"هنا و"لكلّ إنسان".

تؤمن المسيحيّة بالوقت ذاته أنّ هذا الكمال الذي لـ "هنا" ليس من الإنسان فقط بل من الله والإنسان معاً. "الله والإنسان معاً". وهذا ما تمّ في الميلاد حين صار "الله معنا". وكما قال بولس الرسول، عندما جاء ملء الزمان، أي "كماله"، أرسل الله ابنه الوحيد.

فالصورة الأكمل لكلّ إنسان هي صورة يسوع. يسعى التاريخ كلّه إلى يسوع. فالتاريخ قبل يسوع كان تهيئة لحضوره بين الناس، والتاريخ بعده هو لتحقيق صورته في كلّ الناس.

أكملَ يسوع المسيح الصورة البشريّة. وعلى كلّ الحضارات أن تضع هذه الصورة غاية لها، وطريقةً للكمال. فالمسيحيّة ليست ديناً يسعى وراء فرضيات. إنّها على العكس دين تطبيقيّ لأنها قامت من برهان على إمكانيّة الكمال الإنسانيّ ونموذجه. وهي تسعى لتحقيقه بين الناس.

لذلك يقول القدّيس بوليكاربوس من القرون الأولى المسيحيّة الرسولية أن من لا يؤمن بتجسّد يسوع المسيح هو ملحدٌ. إن الايمان بوجود الله هو مسألة فطرية في كلّ إنسان. وهذا غير كافٍ. ولكن من يؤمن بذلك فقط ولا يؤمن أن الله هو لكمال الإنسان، وأن الكمال يصير بالله والإنسان معاً هو بالنهاية في العمق ملحد، لأنه وإن اعتقد بالله فلقد وضع الله في سجن الفكر البشريّ التائه، والله هو من أجل كمال الإنسان. إيماننا أن حياتنا لا تقوم بنا وحدنا. إيماننا تجسّديّ لأنّنا نحبّ ونؤمن أن يكون "الله معنا". التجسّد هو برهان إيماننا، وأي إيمان دون تجسّد هو إلحاديّ.

في الميلاد ظهر الكمال الإنسانيّ. وفي الميلاد ظهرت طريقةُ تحقيق كلّ كمال. التجسّد في يسوع هو صورة الكمال الإنسانيّ وطريقته. يسوع كاتّحاد الله بالإنسان هو درب العمل البشريّ. على كلّ حضارة إنسانيّة أن تكون تجسّديّة، بالمعنى الميلاديّ لليوم.

لن يحقّق الحلم البشريّ والعطش الإنسانيّ النهائي إلى الكمال إلا اتحاد الله بالإنسان وعمل الله مع الإنسان. لقد صرخ يسوع "بدوني لا تقدرون أن تصنعوا شيئاً"! فالتراب إلى التراب يعود، والتراب لا يبني كمالاً.

هذا هو المعنى العميق للميلاد. وحين نَسِيَ الإنسان دربه إلى الكمال جاء الله إليه برهاناً ودرباً وتذكيراً. لقد جاء الله بالتجسد حقيقةً وتحقيقاً للكمال. ولقد بنى كنيسته المقدسة "معملاً ومصنعاً" يلتحم فيه الله بالإنسان بواسطة الأسرار المقدسة. الكنيسة ليست مؤسسة اجتماعية وحسب، الكنيسة هي مصنع الحضارة الإنسانيّة وبوتقة تمحص الجهد البشريّ وتجعله "كمالاً". الكنيسة هي الحضارة الحقيقيّة تعمل بصمت في التاريخ إلى كماله وتحقّق الإنسان في صورته الأكمل.

من لا يسير بطريقة يسوع التجسّدية هو ملحد لأنّه لن يحقّق ما يريده الله، وهو كمالنا. حقيقة الله هي عرض أمام الإنسان للتعاون من أجل كماله. فمن "لا يتعاون مع الله" هو ملحد ولو قَبِلَ بوجوده أو فكّر به. الملحد هو كلّ مَنْ يردّ طلبَ الله هذا وليس فقط مَنْ ينكر وجود الله.

من ينكر تجسد يسوع أنكر الإيمان. لقد تجسد الله ليس ليفكر الإنسان أو يعتقد. لقد تجسد الله ليتأله الإنسان.

آميــن